

اليهودي الإنسان هل يمكن أن يدعو للتعاطف؟!

ابنه قاسم مع نشوة. وأسعد صار منذ ذلك الحين بلا صوت، كلما ذكرهما أخذ قال نكس الحدث رأسيهما. ظلت هذه الكلمات تصف حالهما مع تشعب الحكايات واتساع الأقاويل عن المنتحرين، حتى أمكن سماع القول ونقيضه في الوقت نفسه.. لم تمر سوى شهور قليلة حتى صار خير مقل السامر شمعون حديث سكان ريدة.

استطاع المقرئ وعبر فصول روايته القصيرة ومشاهدها الدالة الموجزة أن يعرض صورة واقعية واضحة متكاملة لليهود في اليمن في ذلك الوقت، وكيف كانت حياتهم وما يمكن أن ينشأ من صراعات بينهم، وكيف تتطور الحوادث والمواقف إلى القتل في الكثير من الأحيان.

الكاتب لم يكتب بعرض

مسألة اليهود واضطهادهم في اليمن في ذلك الوقت من خلال السرد الروائي لأحداث روايته وحكاية أبطالها، ولكنه أراد أن يضيف على الرواية جانباً وثائقياً هاماً، كجزء من تاريخ هذه البلاد

وكيف يتعامل المسلمون واليهود بشكل من العداوة الواضح والعنصرية الشديدة التي كانت أشد تجلياتها في رفضهم للمولود ابن سالم من زوجته المسلمة، فعند اليهود يُنسب الطفل لأمه، وعند المسلمين هو على دين والده، فلما ماتت فاطمة اضطر سالم أن يسلم لكي يتمكن من العيش بين المسلمين الذين قال لهم ابنه "علي مذهب فاطمة"، في النهاية بدأ أن الكاتب لم يكتب بعرض مسألة اليهود واضطهادهم في اليمن في ذلك الوقت من خلال السرد الروائي لأحداث روايته وحكاية أبطالها، ولكنه أراد أن يضيف على الرواية جانباً وثائقياً هاماً، كجزء من تاريخ هذه البلاد، وهو ما أضافه في الفصل الأخير من الرواية وجعل له عنوان "حواليات اليهود اليمنية" التي جعلها مكتوبة على لسان بطل روايته، ولكن بدا واضحاً أنها ليست ذات صلة وثيقة بالرواية.

في هذه الحوليات يكشف المقرئ عن جانب آخر من جوانب تعامل المسلمين مع اليهود في ذلك الوقت، وذلك من خلال بعض الحكايات والمواقف التي يسردها الكاتب على لسان حفيد سالم الذي يكمل حكايته، بدأ بحكاية مدعي النبوة الذي ظهر في تركيا ووصل إلى أورشليم وزعم أنه سيجمع اليهود مرة أخرى حوله ويعيد لهم حقوقهم، وما حدث على إثر ذلك من صراع وقاتل بين المسلمين واليهود، ومحاولات اليهود نزع السلطة عن الحاكم المسلم وغير ذلك من الأحداث والمشكلات، حتى تولى من أمر بإجلائهم وإعدام كنانهم الكبرى والشهيرة في اليمن.

رغوة سوداء:

وهم الاستيطان الضائع

من منطقة أخرى، وحكاية مختلفة مكانياً وزمنياً ينطلق الروائي الأيرتري حجي جابر في روايته "رغوة سوداء" حيث يحكي قصة أحد المهاجرين الهاربين من قسوة الحياة في بلادهم إريتريا إلى إثيوبيا ومنها إلى أرض الميعاد "إسرائيل" التي سمع عنها، وسعى جاهداً لأن يلتحق بها أملاً في حياة أفضل.



لوحة عصام درويش

إبراهيم عادل
كاتب مصري

بعد نحو سبعة عقود من الصراع والحرب والاحتلال والقمع، يبدو من الصعب بل والمستحيل الإحاطة بصورة "شخصية اليهودي" التي تم تناولها في الأعمال الأدبية والروائية العربية، وهل من الممكن أن تكون هناك صورة حيادية لليهودي، بعيداً عما صورته الروايات العربية لاسيما الفلسطينية منها بوصفه محتلاً غاصباً متعطشاً للدماء على الدوام؟! ولعله من حسن الحظ أن نجد أعمالاً روائية تناولت تلك الشخصية بعيداً عن موطن الصراع "فلسطين" وتم تقديمها بشكل إنساني واقعي تماماً، حتى إن انتهى الأمر بواحد منهما إلى وجوده في فلسطين في نهاية المطاف.

بين يدينا نموذجان مختلفان ومتباعداً تاريخياً وجغرافياً، تجمع بينهما شخصية "اليهودي" المقيم في بلاده الأصلية وكيف كان وجوده هناك، وكيف تعامل مع الآخرين المختلفين عنه، ولعل هذه الصورة ما نفتقدها كثيراً تاريخياً وأدبياً، كونها واحدة من الأصول التي بُنيت عليها الأزمة الحالية، ففكرة التهجير التي تمت الدعوة إليها، ونقل اليهود من كافة أنحاء العالم إلى "أرض الميعاد" بحسب زعمهم لم تكن قد تحققت قبل الوعد المشؤوم وعد بلفور عام 1917، بل إن الاستيطان لم يبدأ فعلياً إلا بعدها بأعوام مع هجرة اليهود لفلسطين عام 1948 وما تلاها.

اليهودي الحالي:

اليهود كأقلية مضطهدة!

في رواية "اليهودي الحالي" (2013) للروائي اليمني علي المقرئ يعود الكاتب إلى منتصف القرن السابع عشر الميلادي (كما يحدث في بداية الرواية) ليحكي قصة بطل الرواية "سالم اليهودي" بلسانته رايماً حكايته وعلاقته الغرامية الملتبسة بحبيبة المسلمة "فاطمة"، وحيث نعرف منذ السطور الأولى أن المقصود بكلمة "الحالي" هي "الحلو" باللهجة اليمنية، وهو اللقب الذي أطلقته عليه "فاطمة" منذ بداية علاقتها ورغبتها في تعليمه العربية وأن يعلمها هو العبرية، وما يلي ذلك من أحداث.

منذ البداية تبدو الرواية وكأنها واحدة من قصص الحب المستحيلة، يحكي "سالم" عن بدايات تعلقه "بفاطمة" وكيف سحرته واخذته إلى عالمها، وبين هذا وذاك تكشف الرواية أيضاً عن طريقة تعامل المسلمين مع اليهود، وكيف كان في اليمن، وفي ذلك الوقت حتى كامل لليهود خاص بهم، وهو ما كان في عدد من الدول العربية الأخرى، وكيف يتم التعامل معهم كأقلية مضطهدة، تمارس عليهم أنواع من القمع والاستبعاد لاسيما في الدوائر الرسمية، ولكن للناس أحكاماً أخرى وللقلوب شأنها المختلف، فلا يمنع شياً فاطمة بنت المفتي أن تقع في غرام "اليهودي" بل إنها تبحث في كتب الفقه وآراء الأئمة حتى تصل إلى الرأي الذي يرى بجواز زواجها منه، وهو الأمر الذي ترفضه العائلتان، مما يدفعهما لتترك قريتهما.

أصبح ما يربطني باليهودية هو ما يربطني بقصائد الشبزي وباناشيد الحب وحكاياتي في الزامير والأسفار، باليهود الذين لا استطع النخلي عن صفتهم، بحاييم ومغني الأفراح، بشمعة وزوجها الجرداي ويعيش، برقصات ابنة شمعة التي تغني أحياناً، لكنها لا تترك الرقص في أي فرصة تتاح لها... لم يعد المؤذن يمر من أمام محلنا، بعد حادثنة انتحار

اليهودي من منظور روايتين إشكاليتين

سرديات تخطب الود وأخرى تفكك الأقاليم



ممدوح فراج النابلي
كاتب مصري

لم تمر أيام معدودات على تساول الكاتب الجزائري أمين الزاوي عن: لماذا يخشى العرب ترجمة الأدب الإسرائيلي إلى لغتهم؟ وهي الدعوة التي لاقت ردوداً أفعال متباينة ما بين مؤيدٍ لحتمية الفعل، وأخرى رافضة لهذا الأمر، البتة، تدرغاً برفض التطبيع الثقافي حتى ولو رأت بعض الحكومات العربية أنه "حسن"، فتغيرت المسميات وصار العدو القديم صديقاً أو جاراً بعد أن فتح مفتو السلطان باب الاجتهاد في إعادة المفاهيم لتتناسب مع المرحلة الجديدة؛ فظهرت مصطلحات التعاضف، واحترام الاختلاف، وحوار الأديان وتسامح الأديان، وغيرها من مصطلحات تدرعوا بها لفتح باب التطبيع وقبول الآخر الذي كان مورباً، بعد أن صارت الرؤوس سواء، وتساوت الأيدي التي كانت لك بتلك التي أكلتلك، كما صرخ أمير شعراء الرفض أمل دنقل ذات يوم.

السيدة راحيل

وسلط هذا الجدل البيزنطي صدرت رواية الكاتب السوري الكردي سليم بركات المقيم في السويد "ماذا عن السيدة اليهودية راحيل؟" عن "المؤسسة العربية للدراسات والنشر" (2019)، وهي رواية يمكن وصفها بجملتها واحدة بانها عمل أدبي يُغازل اليهود من منطلق التعاطف على المال الذي حل بيهود سوريا إبّان نكسة حزيران 1967، حيث الرفض والتهجير القسري، وإقصاء الآخر وحرمانه من أهم حق من حقوقه؛ ألا وهو حق المواطنة وإمتلاك الهوية، وتقبلها الشعور بالأمان.

هذه هي جملة الرواية الأساسية، والمسار الذي سلكته الشخصيات، وإن كانت تدور في فراغ سردي، لا يُعرف ميتغاه أو الجدوى منه، فالمؤلف يحرك شخصياته دون هدف تبغيه، أو رسالة ينقلها إلى القارئ. لتبدو الرواية خالية من أي حدث جوهري حقيقي، بعد أن سيطر عليها الكثير من الفثرات والحوارات العجيبية، والمشاهد الوصفية الزائدة التي لم تفعل سوى أن أصابت الرواية بالتحمة، حتى وصل عدد صفحاتها إلى 566 من القطع المتوسط. وحتى لا يكون الكلام على عواهنه، تقدم هذه المقالة العديد من البراهين على تلك الروايات التي شابت الرواية، فنتساءل: ما فائدة وصف القُداحة أثناء إشعال السجارة هكذا "دس لفاضة بين شفثتي في فمه الكبير. هم بإشغالها من قُداح معدن يُضغط طرف غطاءه بالإبهام، فيرتفع الطرف المقابل عن طرقة تقذف الشرارة إلى الفتيل المبطل بالكاز، فيشتعل الفتيل" (ماذا عن السيدة اليهودية راحيل، ص 21)

وبالمثل ما جدوى الحديث عن السينما والحديث الطويل الذي استفاض فيه كيهات مع التاجر حميد زنايبلي، في أول يوم عمل له عندما ذهب برفقة أبيه، فيجده القارئ يُغرِق في شرح مدلول كلمة "طرزان" المقنبرة من إحدى الشخصيات السينمائية، عن مع زنايبلي في الأصل قطع باب الاسترسال عليه عندما استنكر سؤاله عن نهبه إلى السينما فقال غاضباً "ينبغي حرق من يرتادون دور السينما" (ص 247). وبالمثل ما جدوى هذا الحوار الممل الذي دار بين كيهات بطل الرواية وبائعة الدجاج في صفحات

يوميات يهود سوريا (لوحة وسيم الحمد)

إلى جانب الوصف هناك أيضاً الحوارات التي يزدحم بها النص، فلا توجد شخصية داخل رواية بركات إلا وقد أخرجت حواراً مع كيهات، واللافت أن تلك الحوارات أحاديث شاعرية ثقافية فلسفية لا تشبه الشخصيات التي تنطق بها، ولذلك تبدو مصطنعة غير حقيقية، أقرب إلى مسرح هزلي، يصور الأطفال والمراهقين بسبطي التعليم على صورة مفكرين وسياسيين، ويصور الجزيرة اليهودية خلف خشبة تقطيع اللحم فيلسوفة إغريقية.

المؤلف يحرك شخصياته

دون هدف تبغيه، أو رسالة ينقلها إلى القارئ، لتبدو الرواية خالية من أي حدث جوهري حقيقي، بعد أن سيطر عليها الكثير من الفثرات والحوارات العجيبية

أما كيهات فهو من يقوم بكل النقاشات، ويدير هذه الحوارات بدءاً من حواراته مع أخيه موسى عن السينما وتأثير الحرب عليها، إلى حواراته مع أبيه عن اللحم وأسباب شراء الدجاج أو التدخين سراً، مروراً بحواره مع رجلي الشرطة والاستخبارات وهو الحوار الوحيد الذي اعتبره مهماً، حيث كشف عن التضيق على أصحاب العرقيات الأخرى، ورفض الدولة لها، عبر ممثلها أو أجهزتها الأيديولوجية، ثم حوار كيهات مع بائعة الدجاج الذي اعتبره نموذجاً للحشو والبطانة التي لا موضع لها. أو حديث الراوي التعادلي عن أنواع شقائق النعمان الذي يبدو جلياً أنه مقتطع من موسوعة نباتية وملصوق لصفحة في الرواية، حتى أنه لم يكلف نفسه عناء شطب التعدادات الرقمية لتلك الأنواع، بينما يوسع القارئ أن يحصل على تلك المعلومات كما هي حرفياً من أي موقع علمي أو كتاب عن النباتات (راجع رواية ماذا عن السيدة: ص 415 وما بعدها).

يوميات يهودي من دمشق

تستدعي رواية بركات الجديدة هذه من المدونة السردية رواية الكاتب السوري إبراهيم الجيبين "يوميات يهودي من دمشق" والتي صدرت طبعها الثانية عن ذات الدار "المؤسسة العربية للدراسات والنشر" عام 2017، وكانت طبعها الأولى قد صدرت قبل ذلك بعشر سنين عن دار خطوط-دمشق 2007، وقد أتبعها المؤلف بجزء ثان متصل بشخصها وأحداثها جاء بعنوان "عن الشرق: هايبرثيميسيا 21" في العام 2016.

التي لا تقبل أيديولوجيتها الحاكمة إلا طيفاً واحداً يؤمن بحزب وحيد هو حزب البعث المحتكر للسلطة، وهو ما يقود العائلة إلى التفكير في أن تكون عائلتهم معادلة لعائلة جارتهم كاتيا، فتنسب لحزب عدة.

تنتقل الحكاية إلى خارج نطاق البيت إلى الحي، عبر مكوّن سردي/وسيط هو كيهات وموسى، سواء في انتقالاتهما إلى السينما، أو انتقالات كيهات إلى المدرسة ولقائه باصدائه، أو انتقاله إلى السوق حيث السيدة راحيل وحاوئها لبيع اللحم، أو إلى بيتها حيث لقاء ابنتها لينسا أو العسل كيهات السبكي يبرجوما ليكون خادماً لهما يقوم بتنظيف البيت وشطفه وتنظيف المداخل والعجن وغير ذلك من أشياء لا يقوم بها اليهودي في يوم السبت، وما تلبث أن تعود دائرة السرد إلى البيت من جديد، وكان الحركة تبدأ من البيت وتنتهي إليه، في إشارة دالة إلى الهوية المقنبرة التي تعمل الأيديولوجيا المهيمنة على فرضها على المختلف معها،

وهو ما كان إيذاناً بالهجرة على نحو ما فعل بوغوس وأسرته إلى أرمينيا، أو بحالات اختفاء اليهود من الحي دون أن يعرف أحد لماذا؟ تقوم بنية الرواية على المشاهد الوصفية التي أغرق الراوي بها النص، حيث تتوقف عدسته عند كل شيء، ليس على طريقة بركات اللغوية الاستعراضية التي بدت لافتة في أعمال سابقة له مثل "فقهء الظلام" أو "الريش" أو "السيرتين"، بل جاءت لغة عادية تقف زهانها على الإبهار حين لا تجد موضوعاً هاماً تدور حوله في كل حوار أو وصف.

فحين يصف لنا الأماكن والأسواق داخل المدينة وحاوئيتها أيضاً، نرى إسهاب الراوي الغائب في وصف تجارة اليهود المتنوعة التي تتجاور في حوائت مليئة بأعشاب العطر وأقمشة وتمور مجلوبة من أماكن مختلفة.

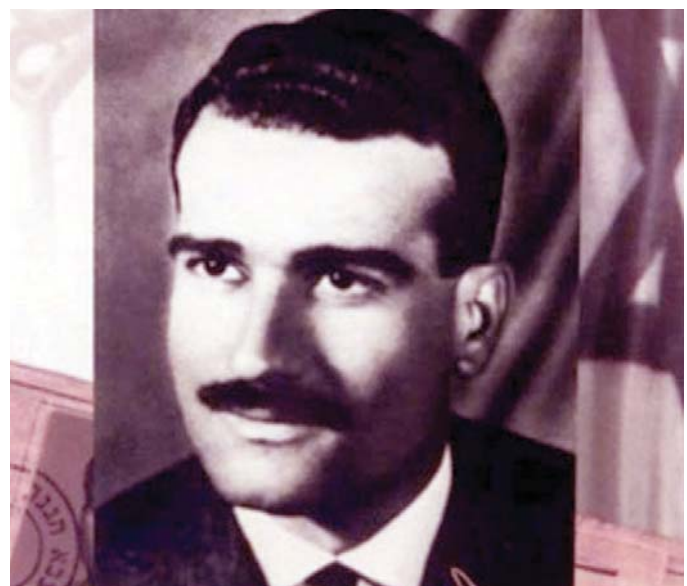
وعبر الوصف ياخذنا إلى وصف جغرافي للحي في رحلة نهاب كيهات لجبل اللحم، فيمر بشوارع عديدة إلى شمال المدينة ومن وسطها حيث المسجد الكبير، والسوق المسقوفة ذات الدكاكين والمساطب والأشباك الواسعة والسينما المسقوفة. كما يصف لنا حركة الأشخاص في وصف يستغرق مساحة هائلة دون أن يكون مفيداً داخل الدائرة السردية أو حتى دون أن ينمي الحركة السردية أو يساعد على تطور الأحداث، على نحو ما نرى في مشهد وصف إشعال السجارة بالقداحة، المشهد الذي يأخذ مساحة كبيرة دون أي فائدة تذكر إلا إذا رأى هو.

(ص 75 وما بعدها) حول سعر الدجاجة والدجاجتين وربع الليرة والبرتين؛ عدا عن عشرات المواقف والمشاهد المصورة بطريقة تثير سأم القارئ بدلاً من أن تجذبه وتشدّه إلى النص.

الرواية محورها الأساسي عائلة كردية مكونة من الأب أوسى الذي يعمل في شركة الكهرباء، وزوجته هذلاً وابنتهما كيهات وهو الأكبر في السادسة عشرة من عمره، والثاني موسى يصغره في التاسعة من عمره، الأسرة الكردية تعيش على مقربة من الحي اليهودي في القامشلي في حي السريان، ولكن علاقاتها ممتدة بالحي ويسكانه سواء بحكم الصداقة كما في علاقة كيهات باصدقاء المدرسة نعيم سامي وسيمر

إسحق وحريم وهما من اليهود، وبوغوس جانك من الأرمين، أو بحكم العلاقات التجارية والعمل كما في علاقة كيهات بالسيدة راحيل بائعة اللحم، والسيد زنايبلي صاحب حانوت بيع أكياس القمح والشعير الفارغة الذي يعمل عنده كيهات في العطة، أو بالحلب كما في علاقة كيهات بلبينا ابنة السيدة راحيل.

تدور الأحداث في معظمها داخل نطاق بيت الأسرة، من خلال حوارات عائلية، بين الأب وزوجته وابنائهم، في مجملها عن الحياة اليومية، وتأثير حرب الأيام الستة التي بدأت مع بداية الرواية على الحياة المعيشية، وأيضاً على الحياة في داخل المدينة، خاصة بعد انتشار أجهزة الأمن والاستخبارات، وما سببه وجودها من مضايقات للسكان، واليهود خاصة، وأصحاب الهويات المضادة لهوية الدولة



إيلي كوهين